الفصل بين الخلافة والامارة

كان الخلفاء الراشدون جامعين بين الخلافة والامارة اي بين السلطة الدينية والدنيوية . وجرى الخلفاء بنو امية وبنو العباس مجراهم نحو قرنين ونصف قرن يقوى شأنهم تارة ويضعف أخرى حسب درجتهم من العقل والعدل وسداد الرأي ودرجة من حولهم من الاعوان الى ان ولي المعتضد بالله سنة ٢٧٩ هجرية فعزز الخلافة ورفع شأنها وازال ما اصاب الامارة من الضعف فانهُ كان على ما قالهُ السيوطي ملكاً شجاعاً مهيباً ظاهر الجبروت وافر العقل شديد الوطأة من افراد خلفاء بني العباس . لقي الحروب وقام بالامر احسن قيام وهابهُ الناس ورهبوهُ اعظم رهبة وسكنت الفتن في ايامهِ لفرط هيبتهِ وكانت ايامهُ طيبة كثيرة الامن والرخاء اسقط المكوس ونشر العدل ورفع الظلم عن الرعية . وكان يسمَّى السفاح الثاني لانهُ جدَّد ملك بني العباس وكان قد خلق وضعف وكاد يزول وكان في اضطراب من وقت قتل المتوكل (سنة ٢٤٧) . وقد اشار الى ذلك ابن الرومي في مدح المعتضد حيث قال

هنيئاً بني العباس ان إمامكم ... امام الهدى والبأس والجود احمدُ
كأبي العباس انشئ ملككم ... كذا يابي العباس ايضاً يجدَّدُ

ولكن لما ولي المقتدر الخلافة سنة ٢٩٥ عاد شأن الدولة الى الضعف لضعفهِ حتى صارت امهُ مثل القهرمانة عليهِ تجلس للظلامة وتنظر في رفاع الناس وتحضر القضاة والاعيان وتبرز التواقيع وعليها خطها . وظهر الديلم في عهدهِ وقوي شأن القرامطة وخرج عليهِ مونس الخادم الملقب بالمظفَّر وقتلهُ . قال السيوطي في تعليل ذلك انهُ كان مؤثراً للشهوات والشراب مبذراً اعطى نساءهُ جميع جواهر الخلافة ونفائسها واعطى بعض جواريهِ الدرة اليتيمة ووزنها ثلاثة مثاقيل واعطى زيدان القهرمان سبحة جوهر (لؤلؤ) لم يرَ مثلها وكان في دارهِ احد عشر الف غلام خصيان غير الصقالبة والروم والسود

وخلفهُ القاهر فقوي شأن علي بن بويهِ الديلمي في عهدهِ واستولى على البلاد وخرجت خراسان وفارس من حكم الخلافة

ثم استفحل امر الخوارج والعيال في عهد الراضي سنة ٣٢٥ حتى لم يبقَ بيدهِ غير بغداد والسواد . ودخل احمد بن بويهِ بغداد سنة ٣٣٣ فخلع عليهِ الخليفة المستكفي ولقبهُ معز الدولة ولم يلبث ان قوي امرهُ فحجر على الخليفة وهو اول من ملك العراق من الديلم . ثم انهُ

تخيَّل من الخليفة فدخل عليهِ سنة ٣٣٤ فوقف وتقدم اثنان من الديلم منذُ قُدَّامَ الخليفة يديهِ اليهما ظنًّا انهما يريدان تقبيلها فجذباهُ من السرير حتى طرحاهُ الى الارض وجرَّاهُ بعمامتهِ . ومضى معز الدولة الى منزلهِ وسيق اليهِ المستكفي ماشيًا مخلَّع وعميت عيناهُ . ونُصِّب معز الدولة المطيع لله خليفةً بدلاً منهُ . وتوفي معز الدولة سنة ٣٥٦ فقام ابنهُ بختيار مكانهُ ولُقِّب عز الدولة فصادر الخليفة المطيع فقال لهُ المطيع انا ليس لي غير الخطبة فان احببتم اعتزلت . واصيب المطيع بفالج سنة ٣٦٣ فدعاهُ حاجب عز الدولة الى خلع نفسهِ وتسليم الامر الى ولدهِ الطائع ففعل

وفي عهد الطائع هذا تمَّ الفصل بين الخلافة والامارة على اسلوب يظهر منهُ ما بلغهُ الامراء بنو بويه من الدهاء والجبروت وما وصل اليهِ بنو العباس من الضعف والاكتفاء بالاعراض عن الجواهر . قال السيوطي في تاريخ الخلفاء وفي سنة ٣٦٧ التقى عز الدولة وعضد الدولة فظفر عضد الدولة واخذ عز الدولة اسيراً وقتلهُ . وبعد ذلك خلع الطائع على عضد الدولة خلع السلطنة وتوَّجهُ بتاج مجوهر وطوقهُ وسوَّرهُ وقلدهُ سيفًا وعقد لهُ لواءين يبدو احدهما مفضض على رسم الامراء والآخر مذهب على رسم ولاة العهود ولم يعقد هذا اللواء الثاني لغيرهِ قبلهُ وكتب لهُ عهداً وقرئ بحضرتهِ

ثم قال «وفي سنة ٣٦٩ سأل عضد الدولة الطائع ان يزيد في القابهِ تاج الملة ويجدد الخلع عليهِ ويلبسهُ التاج فاجابهُ وجلس الطائع على السرير وحولهُ مائة بالسيوف والزينة وبين يديهِ مصحف عثمان وعلى كتفهِ البردة ويدهِ القضيب وهو متقلد بسيف رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وضربت ستارة بينها وعضد الدولة وسأل ان تكون حجابًا للطائع حتى لا تقع عليهِ عين احد من الجند قبلهُ ودخل الاتراك والديلم ولبس مع احد منهم حديد ووقف الاشراف واصحاب المراتب من الجانبين ثم اذن لعضد الدولة فدخل ثم رفعت الستارة وقبَّل عضد الدولة الارض فارتاع زياد القائد لذلك وقال لعضد الدولة ما هذا ايها الملك أهذا هو الله فالتفت اليهِ وقال هذا خليفة الله في الارض ثم استمر يمشي ويقبِّل الارض سبع مرات . فالتفت الطائع الى خالص الخادم وقال استَدْنِهِ فصعد عضد الدولة فقبَّل الارض مرتين . فقال لهُ ادنُ اليَّ فدنا وقبل رجلهُ وثنى الطائع يمينهُ عليهِ وامرهُ بالجلوس على كرسي بعد ان كرَّر عليهِ الجلوس وهو يستعفي . فقال لهُ انت مُلِكْتَ عليك لتجلس . فقبَّل الكرسي وجلس . فقال لهُ الطائع قد رأيتُ ان افوِّض اليك ما وكل الله اليَّ من امور الرعية في شرق الارض وغربها وتدبيرها في جميع جهاتها سوى خاصتي واسبابي فتولَّ ذلك . فقال يعينني الله على

طاعة مولانا امير المؤمنين وخدمته . ثم افاض عليه الخلع وانصرف » وبعد ذلك صار الخليفة طوع امر عضد الدولة

وعقّب السيوطي على ذلك قائلاً « انظر الى هذا الامر وهو الخليفة المستضعف الذي لم تضعف الخلافة في زمن احد ما ضعفت في زمنه ولا قوي امر سلطان ما قوي امر عضد الدولة . وقد صار الامر في زماننا (في اوائل القرن التاسع) الى ان الخليفة يأتي السلطان يهنئهُ برأس الشهر فاكثر ما يقع من السلطان في حقهِ ان ينزل عن مرتبتهِ ويجلسهُ معهُ خارج المرتبة ثم يقوم الخليفة يذهب كاحد الناس ويجلس السلطان في دست مملكتهِ . ولقد حدثت ان السلطان الاشرف برسباي لما سافر الى آمد لقتال العدو وصحب الخليفة معهُ كان الخليفة راكباً امامهُ بحجبهُ والهيبة والعظمة للسلطان والخليفة كاحاد الامراء الذين في خدمة السلطان »

وتوالى الخلفاء بعد الطائع يقوى احدهم ويضعف الآخر حسب مكانتهم وضعف من حولهم من الملوك والسلاطين وقوتهِ وكثيراً ما يزيد مقامهم في النفوس بما يقع من الاحداث الطبيعية كما وقع على عهد الخليفة المسترشد فان السلطان مسعوداً حاربهُ وامرهُ واتفق ان زلزلت بغداد مراراً على اثر ذلك فارسل السلطان سنجر الى ابن اخيهِ مسعود يقول لهُ ادخل على الخليفة وقبّل الارض بين يديهِ واسألهُ العفو والصفح وتنصّل غاية التنصل فقد ظهر عندنا من الآيات السموية والارضية ما لا طاقة لنا بسماع مثلها فضلاً عن المشاهد من العواصف والبروق والزلازل فالله الله ان تتلافى امرك وتعيد امير المؤمنين الى مقر عزهِ . ففعل السلطان مسعود جميع ما امرهُ بهِ . ولكن يقال ان هذا السلطان دسَّ على الخليفة سبعة عشر من الباطنية فهجموا عليهِ وفتكوا بهِ وقتلوا معهُ جماعة من اصحابهِ . ثم انهُ خلع الخليفة الراشد ابن المسترشد ونصّب عمهُ المقتفي لامر الله وبعد قليل اخذ كل ما يتعلق بهِ ولم يترك لهُ الاَّ العقار الخاص وارسل وزيرهُ يطلب من الخليفة مئة الف دينار فقال المقتفي ما رأينا اعجب من امرك انت تعلم ان المسترشد سار اليك باموالهِ فجرى ما جرى وان الراشد ولي ففعل ما فعل ورحل واخذ ما تبقّى ولم يبقِ الاَّ الاثاث فاخذتهُ كلهُ وتصرفت في دار الضرب واخذت التركات فمن اي وجه نقيم لك هذا المال وما بقي الاَّ ان نخرج من الدار ونسلمها . ثم عظم امر المقتفي واشتدَّت شوكتهُ الى ان توفي سنة ٥٥٥ بعد ان عادت بغداد والعراق الى يدهِ وقبل ذلك كان الحكم للسلجقيين من الملوك وليس للخليفة معهم الاَّ اسم الخلافة على ما قالهُ ابن الجوزي

وزاد عن الخلافة في عهد الناصر لدين الله الذي ولي الخلافة سنة ٥٧٥ وكان صلاح الدين قد اعاد الخطبة للعباسيين في مصر واقتفى الظاهر بامر الله والمستنصر بالله خطواته ولكن كثر وفود التتار حينئذٍ وقوي سلطانهم فلما افضت الخلافة الى المستعصم بالله دخل هولاكو الى بغداد في عهده بجيوش التتار وقتل العلماء والامراء واستمر القتل في بغداد وقُتل الخليفة وقتل معهُ جماعة من اولاده واعمامه وبه انقضى امر الخلفاء العباسيين في بغداد . وكان واحد منهم محبوساً فيها فلما اخذتها التتار أطلق فهرب وجاء القطر المصري ولقب المستنصر بالله . وكان شأن الخلفاء في مصر دينيًّا محضاً فلما في سنة ٧٣٦ وقع بين الخليفة والسلطان امر فقبض السلطان على الخليفة واعتقلهُ ومنعهُ من الاجتماع بالناس ثم نفاهُ الى قوص هو واولادهُ واهلهُ واستمر بقوص الى ان مات بها وقد وصفهُ ابن حجر العسقلاني في الدرر بقولهِ انهُ كان فاضلاً حسن الخط يعرف بلعب الكرة ورمي البندق وكان يخرج مع السلطان في السرحات ويلعب معهُ الكرة

وبقي سلاطين مصر يعاملون الخلفاء كأنهم من اتباعهم يجلون قدرهم تارة ويمتهنونهم اخرى فيخلعونهم ويحبسونهم او يقتلونهم الى ان فتح السلطان سليم العثماني مصر وامر آخر خليفة منهم في مصر وهو المتوكل على الله ان يسافر معهُ الى القسطنطينية . قال ابن اياس «فخرج قاصداً السفر الى اسطنبول وخرج صحبتهُ اولاد عمهِ خليل ... فحصل للناس على فقد امير المؤمنين من مصر غاية الاسف وقالوا قد انقطعت الخلفاء من مصر وصارت باسطنبول» الى ان قال «ومن الحوادث في هذا الشهر ان الخليفة لما سافر الى اسطنبول اخرجوا عنهُ نظر مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها وكان ذلك بيد الخلفاء من قديم الزمان وكان من جملة تعظيمهم وكان يحصل لهم من هذه الجهة غاية الخير من الشموع والزيت كما يحصل لهم كل يوم من الصندوق الذي تحت رأس السيدة نفيسة مبلغ لهُ صورة من النذور التي كانت تدخل عليهم فخرج ذلك كلهُ عنهُ وحصل للخليفة يعقوب والد المتوكل على الله غاية الضرر بسبب ذلك»

وواضح من هذا الشرح ان شأن الخليفة كان قد صار حينئذٍ مثل شأن شيخ جامع من الجوامع يعيش من النذور . ولا دليل في تاريخ ابن اياس ولا شبه دليل على ان السلطان سليماً اخذ الخلافة من الخليفة المتوكل او انهُ كان يعبأ بها وبقي ابن اياس يذكرهُ بلقبهِ ابن عثمان وكذلك كان يذكر في اشعار اهل العصر الاَّ انهُ قال ان الخطباء جعلوا يدعون باسمهِ في يوم الجمعة ويقولون وانصر اللهمَّ السلطان الملك المظفر سليم شاه . وبقي يلقب المتوكل بلقب الخليفة امير

هولاكو يدخل بغداد بجيوش التتار

المقتطف صفحة ١٤٨ مجلد ٤٦

المؤمنين حتى بعد ذهابه الى القسطنطينية كقوله « واشيع ان الخنكار لما رحل عن حلب الى بلاد علي دولات نزل ببرعش واقام بها مدة ثم رحل من هناك وتوجه الى اسطنبول وهي القسطنطينية العظمى محل كرسي مملكة ابن عثمان فقيل ان امير المؤمنين محمد المتوكل على الله لما بلغهُ مجيء الخنكار خرج من اسطنبول ولاقاهُ هو واولاد عمهِ والعلائلي علي ابن الملك المؤيد واولاد الامراء الذين هناك من اهل مصر فلما وقعت عين الخليفة على ابن عثمان اراد ان ينزل لهُ عن فرسهِ فحلف عليهِ الخنكار ومنعهُ من النزول اليهِ وقيل انهُ عظمهُ غاية التعظيم واما بقية اعيان اهل مصر الذين هناك فلم يلتفت اليهم »

وذكر في حوادث اليوم الاخير من رمضان سنة ٩٢٦ (١٣ سبتمبر ١٥٢٠) « ان ابن عثمان تغير خاطرهُ على الخليفة المتوكل على الله فاخرجهُ من اسطنبول على غير صورة مرضية ونفاهُ الى مكان عسر يسمى السبع قلبات وقد اختُلف في سبب تغير خاطرهِ عليهِ فمن جملة الاقوال ان اولاد ابن عمهِ خليل رافعوهُ بسبب اقطاع الخلافة ان يعطيهم منها الثلث ويأخذ هو الثلثين فابى ومنها ان الخليفة انهمك في الملذات فبلغ الخنكار ذلك فتغير خاطرهُ عليهِ »

ثم ذكر في حوادث التاسع عشر من ذي القعدة تلك السنة انهُ قدم قاصد من البحر وعلى يدهِ مرسوم من عند السلطان سليمان بن السلطان سليم ان السلطان سليماً قد توفي الى رحمة ربهِ يوم الخميس تاسع شوال سنة ٩٢٦ (٢٢ سبتمبر ١٥٢٠)

ولم يذكر ابن اياس ان السلطان سليماً اخذ الخلافة من الخليفة المتوكل مع انهُ ذكر انهُ اخذ منهُ النذور وذكر اموراً كثيرة لا شأن لها على الاطلاق فيبعد عن التصديق ان يكون قد حدث امر جلل مثل نزع الخلافة من العباسيين ولا يذكرهُ . وزد على ذلك ان لقب الخلافة بقي للمتوكل بعد وفاة السلطان سليم وجلوس السلطان سليمان على عرش آل عثمان فقد قال ابن اياس « ان السلطان سليمان لما جلس على سرير الملك احضر الخليفة من المكان الذي سجنهُ فيهِ والدهُ سليم شاه الى اسطنبول كما كان ورتب لهُ في كل يوم ستين درهماً » وهذا نص صريح على ان السلطان سليماً لم ينزع الخلافة من العباسيين خلافاً لما ذكرهُ جودت باشا في تاريخهِ

وخلاصة القول ان امراء المسلمين شرعوا ينزعون السلطة السياسية من الخلفاء رويداً رويداً منذ القرن الثالث حتى صار الخليفة رئيساً دينياً لا غير وانفصلت الامارة عن الخلافة